آفاق المعرفة

مَاذا يحدث في علوم الانسان والمجتمع

احمد ابو زيد

الفضيحة التى تحوم الآن حول اسم عالم النفس البريطانى الشهير سيريل بيرت Cyril Burt وتحلق فوق راسه تنذر بنتائج بعيدة الأثر في بعض الاتجاهات الحديثة فى علم النفس وقد تؤدى الى حدوث تغييرات جذرية في عدد من النظريات والافكار التى تتمتع الآن بدرجة عالية من الذيوع والاحترام والتقبل . فحين مات سيريل بيرت منذ اكثر من خمس سنوات (عام ١٩٧١) وهو فى الثامنة والثمانين من العمر كان يتمتع بقدر هائل من الاحترام والشهرة والقوة والنفوذ فى الاوساط العلمية والرسمية لم يبلغها عالم آخر منذ أيام وايام جيمس William James . ولكن الظاهر أن هذا كله معرض الآن للضياع نتيجة للهجوم على نظرياته ، والتشكيك فى أمانته العلمية وفي آرائه وتجاربه عن الذكاء ، وهى آراء كانت تعتبر بمثابة حجر الزاوية فى بناء نظرية متماسكة عن دور الوراثة فى الذكاء ، وان العامل الاساسى في تحديد ذكاء الانسان هو الوراثة وليس البيئه . ولقد قام بيرت نفسه وكثير من اتباعه وتلاميذه بعدد كبير من التجارب وبخاصة على التوائم لقياس درجة الذكاء وكلها كانت تؤكد ذلك الاتجاه ، الى أن ظهر من العلماء ـ وبخاصة العلماء الامريكيين ـ من يشكك فى تلك الاختبارات ويتهم بيرت بأنه كان يزيف النتائج ويزورها ، بل وان بعض النتائج التى كان ينشرها تعتمد على تجارب واختبارات لم تحدث أساسا ، وانه كان ينشر دراسات

ومقالات تحت اسماء وهميـة لمؤلفين وباحثين لاوجود لهم ، وذلك بعد ان يفتعل هذه النتائج افتعالا ، ثم يملا تلك المقالات بالمديح والثنـاء على شخصه وعلى اسمه ، اى انه كان يضفى بنفسه ذلك الثناء وينسبه لهؤلاء المؤلفـين الوهميين الذيـن تظهر كتاباتـه هـو تحت اسمائهم .ولقد اثارت هذه الاتهامات والشكوك زوبعة عاتية بين من يعرفون باسم nurturists ويقصد بهم علماء النفس الذين يعتقـدون ان البيئة هى العامل الاكثر اهمية وفعالية فى الذكاء الانسانى ،وبين الطبيعيين naturists الذين يميلون الى اعتبار الوراثة هي العامل المحدد ، وهي النظرة التى يعتنقها بيرت نفسه ويشاركه فيها عدد من علماء النفس ، وبخاصة فى امريكا ، من امثال ريتشارد هرنشتايـن Richard Herrnstein الاستاذ بجامعة هارفارد . وكما ذكرت احدى المجلات الـتى اشارت الى هذا الاتهام الخطير فان الاثر الذى نجم عن هذا الموقف الجديد لا يقل عن الاثر الذى يمكن ان ينجم عن افتراض ان تشـارلس داروين لم يقم مثلا برحلته الشهيرة على ظهر الباخرة بيجل Beagle التى ترتب عليها ظهور نظريته عن التطور واصل الانواع ، وانه قام بتلفيق الحقائق والوقائـع وبالتالى تزويـر وتزييف النتائج التى ظهرت في كتابه الشهير The Origin of Species وان هذا الكتاب ليس شيئا سوى تخيلات واوهـام نبعت في ذهن داروين وهو يدخن الافيون واثناء خضوعه لتاثير ذلك المخدر .

وكما يحدث دائما فى مثل هذه الاحوال ، فقد انقسم العلماء قسمين ، احدهما يهاجم سيريل بيرت ويعمل على الكشف عن الغـش والخداع والكذب والتلفيق التى تمتلىء بهـا كتاباته ، ويحاول ان يبـين التناقضات بـين الاحصائيات التي يوردها بيرت في مقالاتـه وبحوثه . والواقع ان احد هؤلاء العلماء وهو ليون كامين Leon Kamin الاستاذ بجامعـة برنستون كان قد بدأ في مهاجمة بيرت منذ عام ١٩٧٣ والتشكيك فى صدق كتاباته وصحـة الاحصائيات التى يقدمها ، وقد اورد كامين ما لا يقل عن عشرين حالة من هذه الاخطـاء والعيوب ، وبخاصة تلك التى تتعلق بما يزعمه بيرت من التطابق التام بين مستوى الذكاء عند التوائم في ثلاث دراسات على الاقل من تلك التى قام بها ، وذلك رغم ان عدد التوائم كان يختلف في كل حالة عن الاخرى ،وهو ما يعتبره كامين مستحيلا وخاصة حين يصل الامر الى التطابق حتى الرقم العشرى الثالث . وقـد دفع ذلك كامين الى تتبع دراسات بيرت للكشف عن مثل هذه الاخطاء والعيوب التى يرجـع بعضها الى عام ١٩٠٩ واتخذ من ذلك ركيزة للهجوم ليس فقط على بيرت ، بل وايضا على كل « الطبيعيين » والتشكيك فى كل دعاواهم . ثم ازداد الوضع خطورة حين هاجم بيرت احد اتباعه وهو آرثر جنسـن Arthur Jensen الاستاذ بجامعة بيركلى (كاليفورنيا) فى مقال له باحدى المجلات العلمية ، وان كان جنسن حاول في الوقت ذاته ان يكون متلطفا ورفيقا بالاستاذ وان ينتحل له المعاذير فى كبر السن والشيخوخة وضعف الذاكرة ، ويبين ان كثيرا من الكتابات والدراسات الاخرى تدعم صحة عمل بيرت الاصلى . ثم جاءت اللطمة الشديدة اخيرا في الخريف الماضى (خريف ١٩٧٦) حين نشرت جريدة الصنداى تايمز Sunday Times ان اثنين مـن الكتاب اللذين كانا يشتركان معا فى تاليف كثير مـن الدراسات والكتابات عن بيرت،وهما الانسة مارجريت هاورد Margaret Howard والانسة كوناواى J. Conaway ليس لهما اى وجود في حقيقة الامر ، وان بيرت هو الذى اخترع هاتين الشخصيتين ، والدليل على ذلـك هـو ان المقالات التـى كانت تنشر

باسميهما انما كانت تظهر فى « المجلة البريطانية لعلم النفس الاحصائى British Journal of Statistical Psychology التى كان بيرت نفسه يراس تحريرها لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، وحين ترك رئاسة التحرير توقفتا عن الكتابة واختفت مقالاتهما تماما . وكان ذلك عام ١٩٦٣ . ومع ان الشكوك كانت تراود اذهان بعض تلاميذ بيرت منذ الاربعينيات ، فقد كان هؤلاء المتشككون يخشون ان يجهروا بشكوكهم في صدق بيرت وتماسكه وامانته العلمية خشية التعرض لبطشه وسلطانه . وقد ظلت هذه الشكوك تزداد وتنمو الى ان انقلبت الى يقين وكانت الفضيحة .

ولا يعنى ذلك ان القضية انتهت تماما ، بل الاحرى ان يقال ان الحرب بدأت من جديد وبعنف بين الوراثيين او الطبيعيين من ناحية ، والبيئيين من الناحية الاخرى ، وكل يحاول ان يثبت وجهة نظره ويدافع عن سيريل بيرت او يهاجمه هو ونظرياته وآرائه . ولا يزال الامر يجذب الكثيرين من الباحثين ، ولا تزال الاوساط العلمية تنتظر الكلمة الفاصلة فى صدق الاستاذ وامانته وخلقه العلمى .

وليست هذه هى الحالة الاولى او الوحيدة فى تاريخ تزييف العلم وتزوير النتائج لتحقيق اهداف خاصة قد تكون متعلقة بالرغبة فى الظهور وحب الشهرة واحتلال مكانة مرموقة بين العلماء ، وان كان يصعب ان يكون هذا هو الهدف من تزييف الاحصائيات والارقام والنتائج في حالة سيريل بيرت الذى كان يحظى دائما بشهرة واسعة ويلقى احتراما كبيرا فى كل الاوساط العلمية . ومن هنا فقد يكون الدافع له على الاستمرار في التزييف هو الكبرياء الزائفة التى تصيب بعض العلماء وتمنعهم من الرجوع عن بعض آرائهم التى جلبت لهم الشهرة ، وتدفعهم دفعا الى التشبث بهذه الآراء والدفاع عنها . والعلماء هم دائما أصعب الناس مراسا واشدهم تمسكا بآرائهم والدفاع عنها . (١)

ولعل فضيحة سيريل بيرت تذكرنا بفضيحة اخرى مشابهة كان لها دوى هائل منذ ما يقرب من ربع قرن ، وبالذات فى عام ١٩٥٣ حين نشر فاينر Weiner وكلارك Clark كتابهما الشير « اكذوبة بلتداون The Piltdown Forgery ويعزى اكتشاف انسان بلتداون الى المحامى الانجليزى تشارلس دوسن Charles Dawson الذى كان يتخذ من دراسة طبقات الارض هواية خاصة ، ويمارس الحفر والتنقيب ، فى مقاطعة سسكس Sussex حيث كان يعيش . وكان الشائع قبل افتضاح امره انه عثر مصادفة فى عام ١٩٠٨ على حفرة كان يستخرج منها نوع من الصوان وكان يعرف أن الانسان القديم يستخدمه فى صناعة آلاته وأدواته ، ولم يلبث ان كشف فى الحفرة قطعة عظام من جمجمة امراة من نوع انسانى بدائى . وفي عام ١٩١١ كشف عن قطعة اخرى من نفس الجمجمة ، وبذلك استعان دوسن بالعالم البريطانى سير آرثر سميث وودورد Sir Arthur Smith Woodword حيث (عثرا) معا على قطع اخرى من العظام

---

(١) ومن الطريف ان نذكر انه فى عام ١٩٧٥ اكتشف فى امريكا بعض محاولات التزييف فى المجال الذى يعرف الآن باسم Parapsychology وفى أحد المعامل الهامة التى كانت تحاول جاهدة الارتفاع بمستوى ذلك الاتجاه واضفاء الطابع العلمى عليه كى يكتسب احترام علماء النفس . وكان لهذه الجهود المتواصلة اثرها بحيث اعترفت به الرابطة الامريكية لتقدم العلوم American Association for the Advancement of Science وانشات فيها فرعا يعالج هذا التخصص عام ١٩٧٤ ، الى ان تم ضبط احد الباحثين الرئيسيين وهو يحاول التدخل فى احدى التجارب الآلية التي كانت تهدف الى معرفة تاثير المخ على الحركات الفيزيقية فى الفئران . وقد اضطر ذلك الباحث الى الاستقالة .

المتحجرة لانواع حيوانية منقرضة . ومع ذلك فقد كانت بعض الشكوك تراود عددامن العلماء فى حقيقة هـذه الاكتشافات) ، وبـدأ الامر ينجلى عن خدعـة كبرى وتزييف متقن قام به دوسن وامكنه التغرير ببعض العلماء من امثال وودورد نفسه وكذلـك العالم الفرنسى الاب بـروى Abbé Breui . وبـدأ الكشف عـن التزييف حين أراد الدكتور أوكلى Oakley من قسم التاريخ الطبيعى بالمتحف البريطانى أن يفحص في عام ١٩٥٠ مادة الفلورين الموجودة فى فك بلتداون ليحسب مقدار عمره ، فنزع قدرا ضئيلا جدا منها بواسطة مثقب الاسنان . فاذ به يكتشف أن تلك البقايا حديثة نسبيا فى العمر . واستبد الشك بكل من فاينر وكلارك ، وهما مـن جامعـة اكسفورد ، فاقدما فى عام ١٩٥٣ على اختبار الفك باعتباره مجرد عملية تضليل وتمويـه متعمديـن . وفي نوفمبر من السنة نفسها امكنهما أن يعلنا ان الفك ـ رغم كل مظهره القديم ورغم أسنانـه (الآدمية) المتآكلة ـ كان مـن العظـام الحديثـة ، وأن الاسنان بردت بيد آدمية ، وانـه كان مجرد قطعة من فك بغام صغير أجرى عليها كثير من التعديل والتزييف ، وأن أجزاء الجمجمة تـم تلوينها بدهان ثـم دفنت فى حصى بلتداون . وقد أثبتت البحـوث والاختبارات الكيماوية الدقيقة وكذلـك اختبارات الاشعـة أن كـل الحيوانات الحفريـة والآلات الحجريـة التى وجدت معها لم تكن تتناسب وذلك المكان على الاطلاق ، علـى الرغـم من أن معظمها كانـت حفريات حقيقـة . وهـذا كلـه معناه أن يدا شريرة ـ كما يقول وليام هاولز ـ تعمدت جمع تلك الاجزاء معا ثم تمويـه وتزييف المكان كله بمهارة وبراعة . (٢)

• • •

ولكـن هـذه الحالات القليلـة الاستثنائية العارضة لا يمكن أن تقلل من جهود العلماء أو تقف دون تطور العلم وتقدمه ، بـل انها على العكس من ذلك تماما كانت مـن اكبر الدوافع الى البحـث عـن الحقيقة وابرازها ، والـى المثابرة علـى اجـراء التجـارب والاختبارات والتدقيق في البحث والتحليل ، وبالتالى كانت عاملا هاما من عوامل احراز التقدم فى العلم عن طريق دحض الاكاذيب والكشف عن التزييف وابعاد الاوهـام التـى تـراود بعـض العلماء والمفكرين . ومهما يكن الاذى الذى يصيب اسم هؤلاء العلماء الذين زيفوا العلـم فان الفضائح جانبها الايجابى الذى لا يمكن الاستهانة به ، والذى يتمثل على الاقل في معرفة جانب مـن البحث العلمى يقوم على البطلان وبذا يمكن اسقاطه من الاعتبار ، وان كان يجب ان تحتل قصص التزييف العلمـى مكانا فى تاريـخ العلم الى جانب الجهود الفاشلة والانجازات الناجحة سواء بسواء .

والغريب انه اذا كانت هاتان الحالتان من التزييف والفش والخداع قد حدثتا في مجالى علم النفس والانثربولوجيا فان هذين العلمين هما اللذان افلحا ـ دون غيرهما من مجموعة العلوم التى يطلق عليها الآن اسم العلوم السلوكية والتى تضم معهما علم الاجتماع وعلم الاخلاق فى تحقيق اكبر قدر من التقدم في السنوات الاخيرة ، بل انهما وحدهما اللذان يعتبران الان فى كثير من الاوساط العلمية « علمية » (وينطبق هذا بوجه خاص على الانثربولوجيا الفيزيقية والبيولوجية) في الوقت الذى يميل فيه كثير من العلماء الى اخراج علم الاجتماع من هذه الدائرة نظرا لان بعض اتجاهاته تجعله قريبا من علم النفس ، بينما البعض الآخـر يأخذ الآن صورة الجدل الفلسفى .

والواقع ان علم النفس بالذات حقـق كثيرا من النجاح والتقدم اللذيـن يرجعان الـى حد كبير الى عنصـر التشكك فى بعـض النظريات

(٢) انظر فى ذلك ترجمتنا لكتاب وليام هاولز « ماوراء التاريخ » . صفحات ١٣١ وما بعدها .

٢٣٧

تحرر المرأة في العالم وعلى الاخص في أمريكا ، ولقد حملت « مجلة رابطة التحليل النفسي الامريكية Journal of the American Psychoanalytic Association لواء معارضة آراء فرويد ومراجعة نظرياته ، فتذهب الى أن تعصب الرجل وتوقعات الآباء تخلق للمرأة من المشاكل اكثر مما يتصور فرويد والفرويدية ، وان المجتمع هو المسئول الاكبر عن اعتقاد المرأة بانها أقل من الرجل ، وذلك نتيجة للتربية التى تتلقاها الانثى والتى توحى اليها بأنها أدنى في التطور السيكولوجى والاجتماعى والاخلاقى من الرجل . ومع أن هؤلاء العلماء الذين يكتبون فى تلك المجلة لا ينفون تماما أفكار فرويد عن عقدة الاخصاء وشعور المرأة بالحسد ازاء تمتع الرجل بعضو الذكورة ، الا انهم يرون اثر ذلك اقل بكثير جدا مما يذهب اليه فرويد ، وان من الخطأ أن تعطى المدرسة الفرويدية لعقدة الاخصاء كل تلك الاهمية لدرجة أنها ترى أن الدافع على الحب وعلى الحمل لدى المرأة ينجم من احساسها بأنها كائن مشوه وشعورها بضياع او فقدان شيء هام منها ورغبتها في تعويض ذلك الشيء .

فالتحليل النفسي يميل الآن الى استبعاد أن تكون فكرة الحسد على وجود عضو الذكورة لدى الرجل هى العامل الفعال او الاساسى — فضلا عن أن يكون الوحيد — فى تجربة المرأة . وعلى أى حال فلا تزال هناك معلومات كثيرة متراكمة عن طبيعة الشعور الجنسى لدى المرأة ، وعن سلوك الطفل الانثى ، وهى معلومات سوف تغير — كما يقال — الكثير من الآراء الفرويدية السابقة وتقلبها راسا على عقب . وهذه تعتبر ثورة هامة فى التحليل النفسي الفرويدى الذى سيطر خلال الاربعين سنة الماضية ، او على الاقل في أحد المجالات الرئيسية لهذا الفرع من التخصص .

بيد أن علم النفس بوجه عام يجد الآن كثيرا من المعارضة فى بعض الدوائر العلمية التى ترى

القديمة الراسخة والمسلم بها . ولقد بدأ الكثير من العلماء يعيدون النظر في تلك النظريات في ضوء التجارب والخبرات المتزايدة ، ويدخلون عليها الكثير من التعديل والتغيير .

ولقد قاسى فرويد ونظرياته فى التحليل النفسى الشيء الكثير من جراء هذه النظرة النقدية المتشككة ، وربما كانت آراؤه عن المرأة هى من اكثر ما تعرض للنقد والتجريح بل والاستخفاف . فالمرأة عند فرويد مخلوق مغرم بتعذيب الذات والاعجاب بالذات الذى قد يصل الى حد عبادة الذات أو النرجسية ، وهى أمور تتميز بها المرأة أكثر من الرجل ، كما أنها أكثر منه عرضة للامراض العصابية القهرية neurosis فضلا عن اكتسابها الكثير من الجمود والعجز عن التغيير بعد أن تصل الى سن الثلاثين من العمر ، والافتقار الى الشخصية الاخلاقية التى يتميز بها الرجل ، او على الاقل عدم قدرتها على بلوغ نفس المستوى الاخلاقى الذى يمكن للرجل أن يصل اليه . وقد نبعت كل هذه الصفات والخصائص من الفكرة الفرويدية عن غيرة المرأة من تمتع الرجل بعضو التذكير وحرمانها هى منه (عقدة الاخصاء) بحيث ان كثيرا جدا من سلوك المرأة يمكن رده الى هذا الشعور بالغيرة او حتى بالحسد ، بل انه يمكن — فى رأى فرويد ومدرسته — رد معظم الآمال التى تحاول المرأة تحقيقها وكذلك الانجازات التى تصل اليها الى رغبتها في تعويض فقدها لهذا العضو الهام . فعدم تمتع المرأة بعضو الذكورة الذى يتمتع به الرجل يؤدى بها الى الشعور بنوع من الاحباط الذى يوجه كل سلوكها خلال الحياة . ومع أن بعض تلاميذ فرويد حاولوا تعديل هذه النظرية والتخفيف منها أو حتى الابتعاد عنها الا انها تعتبر على أى حال أحد الاسس القوية فى التحليل النفس .

ويأتى معظم الهجوم على هذه النظرية نتيجة لازدياد ضغط الرأى العام الذى يساند حركة

وبخاصة في امريكا ـ ان الحصيلة منه وكذلك حصيلة بعض العلوم الانسانية الاخرى مثل علم الاخلاق اقل بكثير جدا من التكاليف والنفقات والاموال التى تنفق عليها ، وان كثيرا من الدراسات والبحوث على درجة عالية من الضحالة ، كما أن النتائج التي يصل اليها بعض الباحثين الجادين كثيرا ما تعمم الى مجالات أوسع مما تحتمله الدراسة ، فضلا عن المعارضة التى تجدها بعض الدراسات والتجارب التى تثير بعض التساؤلات الاخلاقية . فمشكلة اخلاقية اجراء التجارب على البشر تثير الآن الكثير من الحوار والجدل ، وقد أصدرت مجلة Daedalus عددا كاملا عن هذا الموضوع للبحث عما اذا كان هناك ما يسوغ اخضاع البشر للتجريب ، والى أى حد يتعارض ذلك مع حقوق الانسان الطبيعية . وقد أفلحت هذه الثورة فى ايقاف عدد من التجارب التى كانت تجرى على بعض الافراد كتلك التجربة التي كانت تجرى فى مدينة بوسطون عن التغايرات فى الكروموسومات مع أن هذا المشروع كان يتم تحت اشراف كلية الطب بجامعة هارفارد . وكان الاعتراض على اجراء التجارب يستند الى أسس اخلاقية بحتة على اعتبار أن البحث قد دل على أن ٢٪ من نزلاء السجون والمصحات العقلية كانوا يحملون الكروموسوم XYY بينما لم يكن يحمله سوى ٠٫١٪ من كل الاطفال المولودين حديثا ، مما ادى ببعض الكتاب الى القول بوجود علاقة بين كروموسوم XYY والسلوك العدواني والانحرافات الجنسية . ولقد اثار ذلك معارضة شديدة بين عدد من المفكرين الذين يخشون أن يؤخذ وجود هذا الكروموسوم على انه دليل مسبق على السلوك غير الاجتماعى مما قد يعرض الاطفال الذين يحملونه الى كثير من المتاعب نتيجة للحكم عليهم بأنهم سوف يكونون خارجين على المجتمع حين يكبرون . وقد أوقف ذلك البحث على أساس هذا الاعتبار الاخلاقي .

كذلك تلقى البحوث التى تجرى على تعلم الحيوانات ، او على الاصح قدرة بعض الحيوانات ، وبخاصة القردة ، على التعلم مقاومة شديدة من المؤسسات التى تقوم بتمويل البحوث السيكولوجية ، على أساس ان الاولى هو انفاق الاموال على موضوعات وبحوث تتصل اتصالا مباشرا بالانسان نفسه ، وانه ليس ثمة جدوى او فائدة تذكر من تلك البحوث التى تجرى على القردة . والواقع أنه اجريت فى السنوات الاخيرة محاولات كثيرة لتعليم الشمبانزى بالذات استخدام اللغة ، وكان الهدف الاساسى من هذه المحاولات هو معرفة كيف يمكن للكائنات العضوية الحية ان تتعلم اللغة وتستخدمها ، مع تتبع هذه العمليات المعقدة بطريقة قد لا تتاح للباحثين ، اذا هم قصروا ، ملاحظاتهم على الاطفال الذين يتعلمون في العادة بسرعة كبيرة نسبيا كما يحفظون كثيرا من الكلمات والالفاظ بدون مجهود يذكر . وهناك حالات شهيرة فى ذلك المضمار لعل من اهمها حالة القرد سارة Sarah التى يتولى تعليمها وملاحظتها الدكتور ديفيد بريماك David Premack عن طريق تدريبها على استخدام قطع من البلاستيك مثبتة على رقائق من المعدن وتثبيتها على لوحة من المغناطيس بحيث يمكن الاتصال بالناس عن طريق تحريك تلك القطع . وتجرى هذه التجارب في المركز الاقليمى للبحوث على الرئيسات فى اتلانتا Yerkes Regional Primates Research Center at Atlanta . وقد انضمت الى سارة قردة شمبانزى اخرى هى لانا Lana التى يجرى عليها تجاربه الدكتور رمبو Rumbaugh ومعظم ما امكن ان تحققه القردة لانا حتى الان هو تحريك هذه القطع للتعبير عن احتياجاتها بحيث يمكن القول انها ـ وهى في سن الثالثة ـ امكنها أن تكتسب بدايات لغة بسيطة . وقد استعان رمبو فى ذلك بالكمبيوتر لابعاد اى جملة بها بعض الخلل في تركيبها ، وذلك عن طريق استخدام الرموز

المناسبة . وليست هاتان الحالتان فريدتين فى ذلك . فهناك الدراسات التى يجريها Allen and Beatrice Gardner (جاردنروزوجته)لمعرفةتعليم الشمبانزى وذلك بتعليم القردة واشو Washoe لغة العلامات او الاشارات الامريكية التى يستخدمها الصم فى الاتصال . والامثلة على ذلك كثيرة . ولعل اطرف النتائج هو ملاحظة كيف تتمكن القردة التى تدربت مستقلة وبعيدة بعضها عن بعض من تبادل (الحديث) فيما بينها بطريقة افضل من اتصالها بالانسان . ولكن رغم طرافة هذه البحوث فان المؤسسات الممولة ترى انها تجارب فيها كثير من الرفاهية وانها اقرب الى العبث ، وتميل الآن الى الامساك عن تعزيزها بالمال .

كذلك تبدى هذه المؤسسات كثيرا من التحفظ بازاء بعض الموضوعات التى لا يظهر لها نتائج تطبيقية مباشرة تتصل بتحسين أوضاع الانسان فى المجتمع . وتتولى هذه الحملة الان المؤسسة القومية للعلم National Science Foundation التى تنفق ملايين الدولارات كل عام على البحوث المختلفة في امريكا ، وتثير هذه المؤسسة كثيرا من التساؤلات حول جدية بعض البحوث مثل البحث الخاص بمحددات الحب الرومانتيكى ، وهى بحوث تلقى كثيرا من الظلال على جدية علم النفس ذاته وعلى بعض الاساليب السيكولوجية وعلى جهود علماء النفس .

ولكن اذا تغاضينا عن ذلك فسوف نجد ان الكثير من علماء النفس ، وبخاصة فى بريطانيا ، يعطون جانبا كبيرا جدا من اهتمامهم وتفكيرهم لمشكلة مصير علم النفس والشكل الذى سوف يكون عليه فى المستقبل ، ويتنبأون بأن بعض فروع علم النفس هى التى سوف تحقق مزيدا من النجاح والتقدم والنمو اكثر من غيرها مثل علم النفس الاجتماعى وعلم النفس المهنى ، خاصة وان المشتغلين بالتخطيط في مختلف فروع المعرفة سوف يعتمدون على المعلومات السيكولوجية اعتماد متزايدا كى ينقلوا آراءهم وافكارهم — على الاقل — للرجل العادى . كذلك يتوقع البعض احراز تقدم كبير فى النواحى الفسيولوجية العصبية للسلوك مما قد يساعد فى آخر الامر على التحكم فى السلوك غير المرغوب عن طريق استخدام العقاقير بدلا من وضع أصحاب ذلك السلوك فى السجن . والاغلب على اى حال ان يتزايد سلطان علم النفس في مجالات التعليم والتربية بدرجة مطردة وسريعة . وهذا معناه ازدياد الميل الى ربط البحث العلمي بالتطبيق ، وربما كان ذلك اوضح فى علم النفس الاكلينكى عنه فى بقية فروع علم النفس ، بحيث ازداد الاقبال فى الوقت الحالى على وضع خطط البحث لخدمة اهداف تطبيقية بحته والحصول على نتائج لها قيمة عملية وبخاصة تلك البحوث التى تهدف لمعرفة طرق واساليب تعديل السلوك ،وكذلك دراسة مشكلة التذكر التى تعتبر من الموضوعات الهامة الان فى السيكولوجيا الفسيولوجية . فمن أهم واطرف الموضوعات التى جذبت عناية الباحثين فى هذا المجال البحث عن مدى حقيقة فقدان الذاكرة ، واذا ما كانت هناك حقا اى شواهد او أدلة قوية يمكن الاستدلال منها على هبوط قدرة الذاكرة على الاختزان . والمشكلة على أية حال مشكلة منهجية الى حد كبير . فكما انه يصعب التدليل على التعلم بغير الممارسة الفعلية كذلك يصعب التدليل على تخزين الذكريات بدون استعادة هذه الذكريات او عدم استعادتها . ويميل علماء النفس الان فى ذلك الى أن هناك عوامل اخرى غير مجرد هبوط قدرة الذاكرة على الاختزان فى الاخفاق فى التذكر .

وهذا كله لا يعنى الانصراف تماما عن السيكولوجيا الاكاديمية أو النظرية . فالواقع أن بعض الاتجاهات الحديثة فى علم النفس الاجتماعي بالذات لاتزال تجذب اليها الكثير من الدارسين والباحثين ، كما هو الحال بالنسبة لدراسة العوامل الادراكية Cognitive Factors في السلوك . ولقد أجريت بحوث كثيرة لمعرفة كيف تتحدد استجابات الناس وسلوكهم بسلوك الآخرين وتصرفاتهم وادراكهم للاسباب الكامنة وراء هذه التصرفات . فاستجابة شخص ما لاهانة تلحق به من شخص آخر تختلف اختلافا كبيرا تبعا لادراك الشخص الذى لحقت به الاهانة للحالة العقلية التى كانت تسيطر على الشخص الآخر حين صدرت عنه تلك الاهانة ، ورد الفعل ازاء الاهانة التى تصدر من مخمور مثلا تختلف عن رد الفعل ازاء نفس الاهانة اذا صدرت من نفس الشخص وهو يتمتع بكامل قواه ، أى حين يكون فى حالة وعى كامل لما يقول او يفعل . وهذا معناه ان علم النفس المعاصر بدأ يهتم من جديد بدراسة الظواهر « العقلية » بعد أن كان هذا الاهتمام قد خبا وضعف لفترة طويلة سارت فيها الاتجاهات السلوكية كما وضعها وطسون Watson وكما يقول ميلفين ماركس Melvin H. Marx ان « العقل » عاد الآن الى الظهور فى علم النفس وبدأ يستعيد مكانته ويرسخ قدمه من جديد بحيث نجد كثيرا من المشكلات التى تدرس دراسة مركزة متعمقة تعطى اهتماما بالغا للعمليات والتصورات العقلية او الذهنية كأحد المتغيرات فى عملية التعلم والتذكر . ولا تزال البحوث تجرى بشراهة وكثرة فى ذلك المجال ، ويتوقع العلماء ان يصلوا فى ذلك الى نتائج جديدة ومثيرة . (٣)

وأخيرا فهناك امر على جانب كبير من الطرافة يشغل الآن أوساط علم النفس فى الخارج وهو محاولة احياء آراء أحد علماء الطب النفسي فى أمريكا وهو العالم فيلهلم رايك Wilhelm Reik الذى مات فى أحد سجون امريكا عام ١٩٥٧ حين حكم عليه بالسجن نتيجة لتحديه أوامر احدى المحاكم بعدم مزاولة أعماله والترويج لاساليب العلاج التي كان يتبعها والتي وصفت حينذاك بالجنون . فبعد ما يقرب من عشرين سنة على وفاته يحاول المتحمسون له أن يعيدوا اليه اعتباره وازالة ما لصق باسمه من عار ، وهو موقف مناقض تماما لما يحدث الآن بالنسبة لاسم سيريل بيرت . ولقد تعرض رايك فى أواخر حياته لكثير من السخرية والاستهزاء من العلماء المعاصرين له وبخاصة فيما يتعلق بنظريته عما كان يسميه « طاقة الارجون Orgone-Energy » . ولقد كان رايك تلميذا لفرويد ، وقد أسهم اسهامات كبيرة فى مجال العلاج النفسي عن طريق التركيز على الجسم وليس على العقل ، ولكن « نظريته الكونية » التى لجأ اليها فيما بعد وجدت كثيرا من المعارضة من علماء التحليل النفسي الذين رموها بالاغراق فى الخيال والميتافيزيقا ، فقد كان يعتقد ان كل الاضطرابات النفسية تنجم في المحل الاول نتيجة لتوقف أو تعثر « طاقة الارجون » التى كان يرى أنها صورة بيولوجية للطاقة الكونية التى تحرك كل شيء في الوجود ابتداء من « الشبق الجنسى » حتى حركة النجوم والكواكب ، بل انه ذهب الى حد اختراع ما أسماه « صندوق الارجون "Orgone box" » من أنواع مختلفة من المواد ، وكان يعتقد أنه يستطيع ان يجمع عن طريقه تلك الطاقة وينقلها الى المرضى الذين

---

(٣) انظر مقاله فى : Britannica Yearbook of Science and the Future, P. 196.

كانوا يجلسون داخل ذلك الصندوق للعلاج . فلما منعته احدى المحاكم من ممارسة ذلك العمل وتحدى قرارها حكم عليه بالسجن حيث مات . أن العلاج النفسي فى أمريكا بدأ يراجع آراء رايك واوراقه فيما عدا نظرية الارجون ، وبدأ المشتغلون به يعطون لتلك الآراء مزيدا من العناية والاهتمام ، وينظرون اليها بكثير من الجدية والاحترام لدرجة ان بعض كتبه القديمة أخذت تطبع وتنتشر بين الطلاب بالذات انتشارا واسعا منذ عام ١٩٧٤ ، وتحاول ابنته الآن أن تنشر أوراقه ومذكراته التى لم يسبق نشرها والتى لاتزال محفوظة فى جامعة هارفارد . والمعتقد أنه يوجد بين تلك الاوراق بعض الكتابات المطولة العميقة المدعمة بالارقام والرياضيات الرفيعة حول ما يسمية بانسجام المجالات الكونية Harmony of Cosmic Spheres بل الاكثر من ذلك أن بعض الذين يستخدمون الارجون في العلاج يذهبون الى أن الاجيال القادمة سوف تقدر أعمال رايك بما فيها الصندوق الذى اخترعه ، ولكن يبدو انه لا بد من انتظار ماسوف تتمخض عنه الدراسات الدقيقة التى تجرى الآن على الاوراق التى خلفها من بعده . .

هذه التناقضات والاختلافات والحياة الزاخرة التى يموج بها مجال علم النفس تجد لها مثيلا فى **علم الانسان أو الانثربولوجيا** وبخاصة الانثربولوجيا الفيزيقية ثم فى الاركيولوجيا . فلقد شهدت السنوات الاخيرة كثيرا جدا من الاكتشافات التى قلبت الآراء والافكار القديمة السائدة وبخاصة عن أصل الانسان ، ووصفت كثيرا من النظريات الراسخة موضع التساؤل والتشكك واخضعتها للاختبار والبحث من جديد .

والمعروف أن الانثربولوجيا منذ نشأتها الاولى فى منتصف القرن التاسع عشر كانت تعتبر الانسان – ككل – هو موضوعها ومجال اهتمامها ، وان كانت تركز حينذاك على الناحية التطورية فى حياته ، أى على البحث عن الاصول الاولى للانسان ونظمه وثقافاته والمراحل التى مربها هو وهى على السواء ، ثم بدأ علماء القرن العشرين يركزون على حاضر الانسان ونظمه وثقافاته والتفرعات التى تفرعت اليها هذه النظم والثقافات ، ويجمعون المعلومات المتعلقة بذلك كله من مختلف المجتمعات الانسانية مع الاهتمام – في أول الامر على الاقل – على المجتمعات التى كانت توصف بانها (بدائية) . ولكن الظاهر أن هذا الموقف الذى يكتفى فيه الباحث بدراسة الماضى والحاضر لم يعد يكفي بعض العلماء الاكثر تطلعا ، فبدأوا يبحثون فى مستقبل الانسان ونظمه ، وهو اتجاه وجد له صدى قويا فى الاجتماع السنوى الذى عقدته الرابطة الامريكية للانثربولوجيا American Anthropological Association عام ١٩٧١ حيث كان الاتجاه السائد هو ضرورة دراسة المستقبل كوسيلة للوصول الى فهم اعمق وافضل للانسان والانسانية ولحياة المجتمع الانسانى . وقد نشرت نتائج هذا الاجتماع فى كتاب بعنوان Human Futuristics يعتبر الآن من أكثر كتب الانثربولوجيا رواجا واثارة للمناقشة والجدل .

واذا كان علماء النفس قد أعطوا شيئا من اهتمامهم لدراسة القردة بقصد التعرف على عملية التعلم فان القردة كانت أيضا من أهم الموضوعات التى ركز عليها كثير من الانثربولوجيين الذين قاموا بملاحظة سلوكها وتصرفاتها فيما بينها ، وذلك على أساس أن ملاحظة سلوك القردة العليا كثيرا ما تلقي الضوء على سلوك الانسان نفسه وتاريخ تطوره . ومع أن معظم الدراسات علمية دقيقة قلما يقبل عليها غير المتخصصين فقد ظهر في مجال دراسة

القردة العليا عدد من الكتب المبسطة التى كتبت بطريقة مشوقة لتقريب أمور التطور والتشريح الى المثقف العادى ، ووجدت هذه الكتب ، أو بعضها على الاقل ، رواجا هائلا . (٤)

الا أن الانثربولوجيا الفيزيقية وجدت مجالا آخر للنمو والتقدم واحراز كثير من النجاح خلال السنوات الاخيرة منذ بداية السبعينات وذلك عن طريق امتدادها الى علوم أخرى وتخصصات مختلفة لخلق علاقات وثيقة مع هذه العلوم . وربما كان أهم ما أحرزته في ذلك هو الرابطة القوية التي تقوم الآن مع علماء الوراثة، والجهود المشتركة التى تبذل فى بعض المجالات التى تهم العلمين مثل دراسة التنوع فى الجنس البشرى أو السكان .

وربما كان ظهور الكتاب الذى اشرف على تحريره كروفورد M.H. Crawford ووركمان P. L. Workman بعنوان Methods and Theories of Anthropological Genetics عام (١٩٧٥) ويضم اثنين وعشرين مقالا كتبها علماء متخصصون في العلمين يلقي كثيرا من الضوء على التفاعل بين التخصصين والمناهج والنظريات التى يلجا اليها علماء الوراثة والانثربولوجيا فى دراساتهم لهذه المشكلات . وليس من شك فى ان هذه العلاقات قديمة ، ولكن الدراسات الحالية تظهر المشكلات بشكل قوى ، وتبين مدى التقدم الذى أمكن احرازه، وبخاصة في ميادين المناهج واساليب البحث مثل استخدام الكمبيوتر والقدرة على فصل عدد من المؤشرات الوراثية في الدم وما الى ذلك .

ولقد استمر الجدل قائما حول تفسير السجل الحضرى للتطور البشرى ، وهو من الموضوعات الجذابة التى لم يكف الحديث عنها ابدا . ولكن الجديد فى الامر هو ان هذا الجدل تأثر فى السنوات الاخيرة ليس فقط بالاكتشافات الحفرية الجديدة ، بل وايضا بالمقارنات البيوكيماوية بين الانسان والرئيسات الاخرى . وربما كان من أهم من تولى ذلك عالم الانثربولوجيا الامريكي الشهير شيروود واشبورن Sherwood L. Washburn وزميله ماكون E.R. McCown وقد ذهب واشبورن في ذلك الى أن الانسان والشمبانزى يرتبطان ارتباطا قويا بحيث يحتمل ان يكونا قد انحدرا من سلف واحد مشترك منذ مالا يزيد عن ٥ـ١٠ ملايين سنة، وهو عهد حديث نسبيا، وقد اعتمد ما شبورن فى ذلك على المشابهات البيوكيماوية بين الاثنين . وفى الوقت نفسه ادت الاكتشافات السريعة المتلاحقة الى الحصول على قدر كبير جدا من الحفريات وبخاصة من افريقيا ، وبالذات حول بحيرة رودلف في كينيا وفي حوض نهر اومو فى الحبشة وكلها تشير الى وجود انواع من الآدميات homonoids لها جماجم متقدمة جدا فى تركيبها وترجع الى حوالى اربعة ملايين او حتى خمسة ملايين سنة . وهذا يعنى بالضرورة ان انفصال الانسان عن القردة العليا لا بد ان يكون قد حدث قبل ذلك التاريخ الذى يفترضه واشبورن

---

(٤) ربما كان من اشهر هذه الكتب كتاب ديزموندموريس Desmond Morris عن القرد العارى The Naked Ape وقد ترجم هذا الكتاب الى عدد كبير من لغات العالم ، وكذلك كتابه الآخر بعنوان « حديقة الحيوان البشرية The Human Zoo ثم هناك كتابات روبرت آردرى Robert Ardrey (وهو فى الاصل من كتاب المسرح ولكنه عشق الكتابة فى الاصول البشرية وبخاصة كتابه عن : African Genesis :

A Personal Investigation into the Animal Origins and Nature of Man

وكتابه The Territorial Impative والامثلة كثيرة وكلها تشير الى مدى نجاح الانثربولوجيا الفيزيقية والبيولوجية فى اثارة الاهتمام بحياة الانسان المبكر وعلاقته بالرئيسات الاخرى .

بوقت طويل جدا ، وان كان من الصعب تحديد ذلك التاريخ . وربما كانت الاكتشافات التى تمت في منخفض عفار فى شمال شرق الحبشة مثلا طيبا في هذا المجال ، اذ تم اكتشاف عظام كائن ما لا ينحدر من أصل بشرى بطريقة مباشرة وان كان يمت الى الانسان بشكل ما ، وعظام شخص آخر انه من نسل بشرى او انه يمت الى الجنس البشرى . وقد اكتشف هذه العظام العالم الاميركي دونالد جونسون Donald Johnson بمعاونة اثنين من المساعدين أحدهما فرنسى والآخر حبشي . ويقدر عمر الكائن الذى ينتمى الى جنس الانسان Home بثلاثة ملايين أو اربعة ملايين سنة . وقد تم تقدير ذلك باستخدام طريقة « البوتاسيوم ــ الارجون » لتحديد التواريخ ، وهي طريقة تصلح لتقدير الزمن الى مايرجع الى ثلاثة ملايين من السنين بعكس طريقة الكربون المشع . (٥) وهذا التاريخ البعيد يصعب على الكثيرين تصوره او تصديقه أن الانسان كان يعيش منذ تلك الحقبة السحيقة . وربما كان ريتشارد ليكي Richard Leakey ابن العالم البريطاني الشهير لويس ليكى ، هو أول من ذهب الى تقدير عمر مثل هذه الحفريات البشرية بحوالي ٢ر٦٠٠ر٠٠٠ ، وكان ذلك فى عام ١٩٧٢ ، ولكن ذلك التقدير أثار كثيرا من المعارضة حينذاك . ولكن الظاهر ان ثمة عددا كبيرا من الحفريات او العظام الحفرية المتحجرة ترجع الى ذلك التاريخ وتوجد فى تلك المنطقة ذاتها ... أما الكائن الآخر الذى يظن انه انثى ماتت وعمرها ١٨ الى ٢٠ سنة والتي لا تنتمى الى الانسان الحديث انتماء مباشرا فانها ترتبط ارتباطا أقوى بالانسان القرد الجنوبي او انسان جنوب افريقيا القرد Australo pithecus وهو من أشباه البشر . وقد عثر منها على ٤٠ قطعة عظام من الجمجمة والفك والاسنان والعمود الفقرى والذراع وعظام الساقين والحوض والقدم وغيرها ، ومن الاجزاء امكن تقدير ارتفاع قامتها بحوالي ثلاثة اقدام فقط . وانها كانت تسير منتصبة القامة ، كما ان أسنانها كانت تشبه اسنان الانسان القرد الجنوبي . والمهم من كل هذه **الكشوف وغيرها هو أن علماء الانثر بولوجيا الفيزيقية يعيدون الآن تقديراتهم السابقة حول نشأة الانسان وظهوره ، ويردونها الى احقاب أقدم بكثير جدا مما كانوا يذهبون اليه فى الماضي .**

والمهم هنا ايضا هو أن فكرة وجود نوع ما من (علاقة القرابة) بين الانسان والقردة العليا لا تزال مسألة تثير الجدل فى الاوساط العلمية على الرغم من ميل معظم العلماء الى قبولها وهذا يذكرنا بالحادثة الطريفة التي وقعت فى

---

(٥) طريقة الكربون المشع فى تقدير عمر الاجسام الحفرية ليست طريقة دقيقة تماما نظرا للملابسات التي تحيط باستخدامها وطبيعة تكوين المواد الراديوكاربونية ذاتها . وتعتمد التقديرات الراديوكاربونية على كربون ١٤ ، وهو أحد نظائر الكربون ذات النشاط الاشعاعى الذى تقدر دورته النصف عمرية بحوالى ٥٥٦٨ سنة . فهو اذن ينحل بمعدل معروف مثل كل العناصر المشعة . ويوجد كربون ١٤ فى الغلاف الجوى بنسبة ثابتة فى كل انواع الكربون ، وبذلك يدخل فى تكوين كل الانسجة الحية بنسبة ثابتة أيضا . وحين يموت النسيج فان كربون ١٤ يبدأ فى التحلل بحيث لايكاد يتبقى منه بعد حوالى ٢٥ر٠٠٠ سنة الا جزء ضئيل جدا يصعب قياسه بدقة ، وعلى ذلك فان النسبة المتبقية فى قطعة من الخشب مثلا تدلنا ــ على وجه التقريب ــ على الزمن الذى ماتت فيه . ويقول وليام هاولز انه يمكن تشبيه المسألة بقدح موضوع تحت صنبور بحيث يظل القدح مملوءا ما دام الصنبور مفتوحا . فاذا ما اغلقت الصنبور بدأ الماء يتبخر من القدح حتى يتلاشى تماما . ففى اثناء عملية التبخر نستطيع ان نقيس المدة التى مرت على اغلاق الصنبور . اما بعد ذلك فان كل مايمكننا معرفته هو ان الوقت اللازم للتبخر قد انقضى . ولذا فان من الصعب الاعتماد تماما على التواريخ والتقديرات الراديو كربونية الا بالنسبة للخمسة والعشرين الف سنة الاخيرة او ما يقرب منها . بل ان هذه التواريخ لا تعتبر دقيقة بمعنى الكلمة اذا تجاوزنا العشرة آلاف سنة الاخيرة » . انظر فى ذلك ترجمتنا لكتاب وليام هاولز : ماوراء التاريخ ــ المرجع السابق ذكره ــ حاشية صفحة ١٨٧ .

القرن الماضى حين القى هكسلى الكبير محاضرته الشهيرة التي يدافع فيها عن نظرية أصل الانواع بعد أن نشر داروين كتابه ، وأشار في المحاضرة الى انحدار الانسان من القردة العليا فاذا بزوجة اسقف ورسستر تصيح : « منحدرون من القردة ؟ ياالهى ! ارجو الا يكون ذلك صحيحا ، ولكن اذا صح ذلك فارجو الا تنتشر هذه الحقيقة بين الناس » . وعلى الرغم من مرور قرن على هذه الحادثة فهناك من العلماء من يرفض فكرة وجود اى صلة ـ ولو بعيدة ـ بين الانسان والقردة العليا. ولقد عبر ذلك الموقف المتشكك أو حتى الموقف الرافض عن نفسه في الاجتماع السنوى الاخير الذى عقدته الرابطة الامريكية للانثربولوجية عام ١٩٧٦ فى واشنطون ، حيث دارت مناقشات طويلة وصاخبة حول الفرع الجديد من العلوم الاجتماعية الذى يعرف باسم (البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology » « ، والذى يعتبر عالم الحيوان الاميركي ادوارد ويلسون Edward O. Wilson خير من يدافع عنه ويسانده ويظاهره ويعمل على نشره . وربما كانت معارضة هؤلاء المعارضين راجعة الى ان وجود علاقة بين الانسان والقردة العليا تشعرهم بشيء من الضعة والانحطاط على مايقول احد العلماء الذين يقبلون الفكرة ولا يرون فيها أى غرابة فى ضوء المعلومات التشريحية المتوفرة . ومع أن ويلسون الذى يعمل أستاذا لعلم الحيوان في جامعة هارفارد لم يبلغ من الشهرة ما بلغه داروين ، الا ان آراءه لا تزال تبعث على الحيرة وتصدم القارىء بنفس الطريقة التي صدمت بها آراء داروين الناس حين نشرها لاول مرة .

وتهتم البيولوجيا الاجتماعية بابراز الاسس البيولوجية للسلوك الاجتماعي فى كل الانواع الحية وليس فقط في الجنس البشرى .

ويعتقد ويلسون وكثيرون غيره من الانصار والزملاء والتلاميذ ان جانبا كبيرا من السلوك الانساني محدد وراثيا (راجع ما قلناه من قبل عن هذه النقطة حين تكلمنا عن سير ل بيرت) ، وهذه مسألة يرفضها عدد كبير من علماء الاجتماع والانثربولوجيا ، وبالذات علماء الانثربولوجيا الماركسيون Marxist Anthropologists الذين يعتنقون التفسير الماركسى للحياة الاجتماعية وللثقافة ، اذ انهم يتهمون البيولوجيا الاجتماعية بانها وسيلة لتبرير قيام الرأسمالية الرجعية ، كذلك تجد البيولوجيا الاجتماعية معارضة شديدة من انصار حركة تحرر المراة ، ويرون انها نوع من الدفاع عن سيطرة الرجل ومحاولة للتمسك بمكانته المتميزة بالنسبة للرجل . ويبدى كثير من العلماء تخوفهم من أن يكون هذا الاتجاه أداة ووسيلة لتعضيد الفكرة القائلة بوجود أساس وراثي للاختلافات فى درجة الذكاء بين الشعوب والسلالات المختلفة . ومن هنا كان الكثيرون من المشتركين فى ذلك الاجتماع السنوى يحرصون على أن تصدر الرابطة توصية بأن هذا العلم الجديد هو مجرد محاولة لتبرير الوضع القائم في المجتمع الانساني والذى يقوم على التمييز بين الجنسين وبين الشعوب والسلالات وبين مختلف فئات البشر على أساس درجة الذكاء ، وبالتالي التوصية بعدم تدريس هذا العلم (البيولوجيا الاجتماعية) فى المدارس للاطفال والشباب . الا ان الغالبية العظمى من الاعضاء الذين بلغوا ٣٠٠ عالم خذلوا ذلك القرار ووجدوا ان قبوله سوف يرد الفكر العلمى الى العهد الذى وقفت فيه الكنيسة موقف العداء من افكار جاليليو ، كما أن فيه رجعة أوردة الى عصر معاداة ومناواة افكار داروين ونظرية التطور . وقد انضم الى فئة المؤيدين لهذا العلم الجديد والمدافعين عنه

كثير من علماء الانثربولوجيا المشهورين من أمثال مارجريت ميد ومارشال سالينز .

والواقع أن البيولوجيا الاجتماعية ليست شيئا أكثر من نظرية داروين التطورية ، ولكن في اسلوب جديد ، كما أنها تستفيد فائدة كبيرة من النتائج التي حققها علم الوراثة الحديث . وترتكز البيولوجيا الاجتماعية على فكرة أن الصراع من أجل الحياة هو العامل الاساسي الذى يدفع على الاستمرار في الوجود وفى التناسل ، ولكن العنصر الفعال في ذلك ليس هو الافراد او الجماعات ولكن الجينات أو المورثات ذاتها . وكما ان المثل القديم يقول ان الدجاجة ليست الا وسيلة البيضة لصنع بيضة اخرى « كذلك يمكن اعتبار الجسم مجرد وسيلة لاحبال الجينات لصنع أجيال او مجموعات جينات جديدة ، وهذه الجينات او المورثات هي أساس الانسان ، وهي التي تكون له جسمه وعقله ، كما ان المحافظة على هذه الجينات هي المبرر الاخير لوجودنا نحن ، اى أن الانسان هو في آخر الامر نتاج لتلك الجينات .

والظاهر ان هذه النظرية تحل كثيرا من المشكلات التى لم تستطع نظرية التطور الداروينية ايجاد حل لها . فالصراع من اجل البقاء كما يظهر فى نظرية داروين لا يمكن ان يفسر بعض مظاهر السلوك في الانواع المختلفة مثل التضحية بالذات وتعريض الحياة للخطر وما الى ذلك ، بينما التفسير البيولوجى الاجتماعى يفسر ذلك بأنه عملية لحماية افراد الجماعة الاقارب الذين يحملون الكثير من نفس الجينات ، كما انه وسيلة لزيادة الفرص للابقاء والمحافظة على هذه الجينات . وهذا معناه ان هذا السلوك هو تعبير عن (انانية) الجينات وليس عملا من أعمال التضحية الخالصة الصادقة الصادرة عن الافراد . وهذا يتلاءم ويتفق تماما مع معنى التطور والصراع من أجل البقاء . فالغيرية altruism عند الانسان ، بل وكثير من مظاهر الاخلاق الاخرى ، يمكن ان تكون قائمة ومرتكزة على أساس وراثى بحت .

وقد قدمت عالمة الانثربولوجيا سارة هردى Sarah Blaffer Hrdy امام الرابطة الامريكية للاستربولوجيا تفسيرا سوسيوبيولوجيا لسلوك بعض القردة القناصة (اللانجور Langur) حين يأسر احدها جماعة تنتمى الى ذكر آخر فانه يقتل جميع القردة الصغار الرضع ، بأن ذلك راجع الى أن قتل هذه الصغار يساعد الام على افراز بويضات جديدة يمكن له هو تلقيحها واخصابها ، بينما الابقاء على هذه القردة الرضيعة سوف يقلل من فرصة الامهات لافراز البويضات لمدة ستة شهور على الاقل وبذلك يقلل فرصته هو لاخصاب الام ووضع جيناته فى الجيل الجديد .

بل ان البيولوجيا الاجتماعية تفسر الكثير من الاختلافات السلوكية بين الجنسين على أساس اختلاف الجينات ايضا . فالرجل مثلا لا يأبه كثيرا من الاهتمام برعاية الاطفال بعكس المرأة ، لان الرجل يمكنه ان يوزع جيناته أو مورثاته وينشرها بسهولة وعلى نطاق واسع عن طريق تلقيح واخصاب عدد كبير جدا من الاناث ، بينما المرأة تتحمل عبء تربية الاطفال لانها لا تستطيع ان تحمل خلال حياتها سوى عدد معين من المرات ، وهو عدد قليل ومحدود جدا ان هو قورن بما يستطيع الرجل أن يفعله . ويثير هذا التفسير ثائرة أنصار الحركة النسائية لانه يحمل بين طياته الزعم بأن المرأة تميل بطبيعتها للتركيز على أعمال البيت واعداد الطعام ، بينما يميل الرجل بطبعه الى التركيز على النساء ، وهذه ميول تكاد تكون

غريزية عند كل منهما . وقد وجد ذلك الاتجاه اقصى مزاعمه فيما ذهب اليه ويلسون نفسه من انه حتى تقسيم العمل حسب الجنس ـ فى المجتمعات الانسانية وبخاصة البدائية ـ يمكن رده الى اختلاف الجينات لدى الرجل والمرأة .

وقد نشر ويلسون هذه الاراء كلها في كتابه الممتع « البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology » الذى نشره عام ١٩٧٥ . ولكن على الرغم من أن اختلاف الجينات يحتل مركزا هاما فى نظريته لتفسير الاختلافات السلوكية فى المجتمع الانسانى الا انه يعترف مع ذلك بان ما لا يزيد عن ١٠٪ الى ١٥٪ من سلوك الانسان يرتكز على اسس وراثية بحته ، وان خيطا طويلا وقويا يربط فى هذا الصدد سلوك جماعات النمل وتجمعات الديكة الرومية ويمتد الى السلوك الاجتماعى عند الانسان ، اى انه يمكن تفسير سلوك أفراد أى (جماعة) من الجماعات الحيوانية فى ضوء اختلاف الجينات ، وان الامر ليس قاصرا على المجتمع الانسانى وحده . ويغالى بعض انصار هذا الاتجاه حين يذهبون الى أنه يمكن تفسير الاخلاق عن طريق دراسة المورثات أو الجينات ، وهى مسألة سبق ان اشرنا اليه من قبل ، وانه يجب لذلك أن نعيد النظر فى دراسة الانسان من جميع النواحى بحيث نأخذ فى الاعتبار الجانب البيولوجى واثره فى السلوك والقيم ، وان نبرز العلاقة القوية بين العلوم الانسانية والاجتماعية من ناحية وعلوم الحياة الاخرى على ما كان يفعل بعض علماء القرن التاسع عشر ، قبل ان تنزع العلوم الانسانية والاجتماعية الى الاستقلال والعزلة .

• • •

نفس هذه الثورة على ما هو تقليدى أو كلاسيكى نجدها الآن فى الانثربولوجيا الاجتماعية ، حيث يرفع عدد من العلماء المعاصرين راية التمرد على المدرسة التى حملت لواء الانثربولوجيا الاجتماعية خلال النصف الاول من هذا القرن ، وبخاصة فى بريطانيا ، ولا تزال حتى اليوم تتصدر كل الاتجاهات الانثربولوجية ونعنى بها مدرسة البناء الاجتماعي والتحليل الوظيفي التى أرسى قواعدها رادكليف براون ومالينوفسكى . والنقد الذى يوجه الى هذه المدرسة يعتمد على الزعم بأن التفسيرات البنائية للمجتمع تفسيرات ستاتكية او استقرارية تنكر الاعتراف بالقوى المتعارضة والمتصارعة فى بناء المجتمع وتحاول أن ترد كل شيء الى فكرة التوازن. والمعروف ان فكرة التوازن سيطرت سيطرة قوية على الفكر الاجتماعى الفرنسى منذ أيام دوركايم Durkheim بل ونجدها في كتابات اوجيست كونت Auguste Comte ، وهى ترى ان الصراع مجرد حالة مرضية عارضة او انها على الاقل حالة غير سوية ، وان المجتمع لن يلبث ان يرد الى حالة التوازن الاجتماعى الاصيل . كذلك يؤخذ على المدرسة البنائية انها تغفل ـ في رأى معارضيها ـ العلاقات الاجتماعية الواقعية ، او تتفاعل عنها ـ ولا تهتم الا بالعموميات او المبادىء التى تحكم سير المجتمع والتى يمكن الوصول اليها عن طريق التجريد العقلى . وهذا كله معناه عدم الاهتمام بالواقع المتغير أو بعلاقات الافراد بعضهم ببعض مما يعنى فى آخر الأمر أن ما يصفه العلماء البنائيون ليس هو الواقع وانما هو شيء متخيل ومتصور وليس له وجود خارج أذهانهم وان ما يقدمونه لقرائهم هو مجتمع من صنعهم هم أنفسهم ولا علاقة له بالحقيقة الواقعية . وقد نشأ هذا كله ـ في رأى المعارضين ايضا ـ من اخفاق البنائيين في التغلغل فى أذهان أفراد

المجتمع الذى يدرسونه ، وافضالهم التعرف على نظرة هؤلاء الافراد الى انفسهم والى مجتمعهم والى الثقافة التى يعيشون فيها . (٦)

وقد نشأ عن هذا اتجاهان رئيسيان يحاولان الآن السيطرة على التفكير الانثربولوجى واقتسامه فيما بينهما . اما الاتجاه الاول فيرى ضرورة التعرف على العلاقات التى تنشأ بين الافراد بعضهم وبعض ، لان المجتمع ليس الا نسيجا أو شبكة من العلاقات المعقدة ، وان افضل وسيلة لفهم البناء الاجتماعى تكون عن طريق تتبع هذه العلاقات القائمة بين الافراد ليس بالملاحظة التي يعتمد عليها التقليديون ، بل بسؤال الناس انفسهم عن علاقاتهم بالآخرين وتتبع هذه العلاقات بالسؤال والتدوين والتحليل . والعادة أن الباحث الانثربولوجى الذى يهتم بدراسة شبكة العلاقات الاجتماعية Social Network يركز جهوده فى أول الامر على الاقل على شخص معين بالذات يرمز اليه بالانا ego ويختبر أنواع وأشكال التفاعل interaction بينه وبين غيره من الاشخاص بحيث يعتبر هذا التفاعل بمثابة حلقات تؤلف شبكة واحدة من العلاقات القائمة — أو المحتمل قيامها — بين هؤلاء الاشخاص . فكأن هذه المدرسة التى نشأت مؤخرا كأحد البدائل عن التحليل البنائي الوظيفى بالمعنى التقليدى للكلمة تحرص على تتبع مختلف الاختيارات التى يتضمنها أى نوع من النشاط الاجتماعى او أى شكل من العلاقات في أى موقف من المواقف ، على اعتبار ان الانسان فى أى علاقة من العلاقات أو في أى مظهر من مظاهر السلوك انما يختار بين عدة احتمالات وامكانيات . فكأن تحليل شبكة العلاقات network analysis هو وسيلة منهجية يمكن بواسطتها دراسة السلوك الشخصى أو السلوك الفردى بطريقة منهجية منتظمة ، وكذلك قياس التفاعل عن طريق استخدام الاساليب الكمية ، مما يضفى على هذه الدراسة درجة أكبر من الدقة التى لا تتوفر فى الدراسات البنائية التقليدية ، التي هي بالضرورة دراسة كيفية تعتمد على الملاحظة كما سبق ان ذكرنا . ومن هنا فان هذا الاتجاه يطبق بوجه خاص في دراسة المجتمعات الحضرية الاكثر تقدما وتعقدا وتخصصا ، كما انه يستخدم فى دراسة التغير الاجتماعى الذى يحتاج الى القياس . ولقد شاع هذا الاتجاه في تحليل الحياة الاجتماعية خلال السنوات العشر الماضية ، وبخاصة منذ بداية

---

(٦) قد يختلف علماء الانثربولوجيا البنائية فيما بينهم حول مكونات البناء الاجتماعى ، ولكنهم رغم هذا الاختلاف يتفقون جميعا فى عدد من النقاط الرئيسية التى تميز كل الاتجاه البنائي وتعطيه طابعه المميز . وهذا الطابع الغالب انما ينبعث من تسليم كل البنائيين بمبدأ الاستمرار فى الزمن . ويصدق ذلك على الجماعات وعلى العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين هذه الجماعات . فالجماعات الكبيرة التى تحتفظ لعدة أجيال بكيانها وبهيكلها العام ونظام تقسيماتها الداخلية ونمط علاقاتها بعضها ببعض هى التى تعتبر دون غيرها وحدات بنائية ، وذلك بعكس الزمر الاجتماعية المؤقتة او السريعة الزوال ، اذ يتفق معظم العلماء على اخراجها من البناء الاجتماعى . وبالمثل تعتبر العلاقات الدائمة التى تقوم بين هذه الجماعات علاقات بنائية ، وتعبر عن مواقف بنائية ، بعكس العلاقات التى بين الافراد والتى يمكن وصفها بانها علاقات اجتماعية فحسب (وليست بنائية) . وحتى كان بعض العلماء البنائيين من امثال راد كليف بروان ينادون بضرورة الاخذ فى الاعتبار ما يعرف باسم العلاقات الثنائية فانهم لم يكونوا فى الاغلب يقصدون بذلك العلاقات العرضية ، وانما كانوا يقصدون على الخصوص العلاقات التى تقوم بين افراد الاسرة ، كالعلاقة بين الزوجين والعلاقة بين الآباء والابناء ، وهى علاقات تمثل فى حقيقة الامر انماطا اساسية لا يمكن اغفالها فى دراسة البناء الاجتماعى ، لان العلاقة الاولى تمثل نمط العلاقة بين الجنسين داخل الاسرة ، بينما تمثل الثانية نمط العلاقة بين الاجيال المتتالية . وهذا معناه ان دراسة هذه العلاقات الثنائية عند البنائيين انما هي الاساس الذى تقوم عليه دراسة الانماط السلوكية العامة المجردة . وفى هذا وحده تتمثل وتتركز وتتلخص اهمية هذه العلاقات الثنائية عند البنائيين (انظر كتابنا عن البناء الاجتماعي : المفهومات) .

السبعينات ، وان كان تشبيه تداخل العلاقات الاجتماعية وتفاعلها بالشبكية يرجع ـ على الاقل ـ الى عالم الاجتماع الالمانى زيمل Simmel والى مدرسة علم الاجتماع الصورى. ومع أن الكثيرين من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والانسانية يستخدمون هذا التشبيه الا انه اكثر انتشارا في الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية . ولكن على الرغم من كل هذا الانتشار فان عددا كبيرا من العلماء يتشككون ليس فى مدى كفاءة هذا الاسلوب في ذاته ولكن فى مدى صدق أعضاء المجتمع ـ أو الانا ـ فى الادلاء بالمعلومات ، ومدى مطابقة هذه المعلومات التى يدلون بها مع الواقع . اذ الظاهر ان نسبة كبيرة من المعلومات التى يحصل عليها الباحثون الذين يتبعون هذا الاسلوب في البحث يخالف الواقع مخالفة صريحة . وبقول آخر فان التقارير التى يدلى بها افراد المجتمع عن سلوكهم وعن علاقاتهم بالآخرين ونوع العلاقات كثيرا ما تتعارض مع سلوكهم الحقيقي أو الواقعى ، ومن هنا بدأ الشك يثور حول مدى قيمة نظريات البناء الاجتماعى التى تعتمد على المعلومات الخاصة بالشبكات الاجتماعية المتوفرة في الوقت الحالى .

واما الاتجاه الثاني الذى يعارض التحليل البنائي الوظيفى السائد فى الكتابات التقليدية فيرى أن من العبث الاكتفاء بملاحظة سلوك الافراد وتتبع علاقاتهم الظاهرة او الواقعية فى المجتمع لاستخلاص صورة بنائية راسخة وثابتة عن هذه العلاقات ومظاهر السلوك والنظم ، لان مثل هذا النوع من التحليل هو ـ في أفضل حالاته ـ مجرد انعكاس لما يتصوره الباحث نفسه عن المجتمع ، او لما يدركه ذلك الباحث فى المجتمع من علاقات وأوضاع ونظم وقيم ، وليس صورة لما يدركه الناس انفسهم عن واقعهم الاجتماعى أو لما يتصورونه عن هذه العلاقات والاوضاع والنظم والقيم . فالمهم فى نظر هذه المدرسة المعارضة هو البحث عما يتصوره الناس ويفكرون فيه وطريقة تفكيرهم وأسلوب ادراكهم للاشياء والمبادىء التى تكمن وراء هذا التفكير والتصور والادراك والوسيلة التى يصلون بها الى ذلك ، لانهم هم بعد كل شيء أصحاب هذا المجتمع أو تلك الدراسة ، ومن العدل أن نتعرف على آرائهم فيهما . ويذهب أصحاب هذا الاتجاه ، الذى أصبح يعرف باسم الانثربولوجيا الادراكية congnitive anthropology الى أن هذه النظرة أو هذا المنهج خليق بان يعطى صورة أدق وفهما أعمق وصدقا اكثر للمجتمع الثقافى مما يمكن الحصول عليه باتباع الاسلوب التقليدى فى التحليل البنائي الوظيفي .

ولقد بذلت محاولات كثيرة في السنوات الاخيرة على ايدى علماء الانثربولوجيا الثقافية لوصف وتحليل ـ بل وايضا تصنيف انماط الادراك وانواعه فى مختلف الشعوب ، وان كان الكتاب يختلفون أحدهم عن الآخر فى مدى تعمقهم في هذه المسالة . والواقع انه حتى الوصف الانتوجرافي البسيط ، او ما يعرف باسم السر الوصفى الذى يخلو من التحليل العميق ، يعطينا بشكل ما صورة لتصورات اعضاء المجتمع وافكارهم ومعارفهم ، اى انه وصف بسيط ساذج لما يتصوره الناس ويفكرون فيه عن جوانب الخيال وصور النشاط البشرى المختلفة . ولكن ذلك يعتبر مجرد خطوة أولى مبدئية يجب أن تتبعها عدة خطوات معقدة للتعرف على أسباب اختلاف المدركات من مجتمع لآخر ، ثم تحليل الثقافة بطريقة اكثر تجريدا . فكل ثقافة تؤلف ـ بما تحتوية من افكار وانماط سلوكية ـ « خريطة ادراكية ـ على ما يقول جيمس داونز James F. Downs فى كتابه عن « الطبيعة الانسانية » Human Nature . ومع ان الخريطة الادراكية لاى شعب من الشعوب تحتفظ بملامح ومقومات أساسية ثابتة فانها لا تخلو من بض الاختلافات في التفاصيل والدقائق من جيل لآخر ، بل ومن

زمرة اجتماعية لاخرى فى الفترة الزمنية الواحدة . وهذا معناه أن كل مجتمع له تطوراته الخاصة عن العالم أو الكون مثلا تختلف عن تصور الى غيره من المجتمعات . وهذا هو ما يعبر عنه بعض الانثربولوجيين باسم النسبية الثقافية cultural relativism (على الاقل في بعض جوانب هذا المصطلح) وقد وصل الامر ببعض الكتاب المعاصرين الى الاهتمام بدراسة الاسس التى تعتمد عليها الشعوب المختلفة وبخاصة الشعوب البدائية في تصنيف الاشياء والظواهر التى توجد فى مجتمعاتهم ، على زعم أن مثل هذا العمل كفيل بأن يقضى على العنصر الذاتى او الشخصي الذى قد يجد طريقه الى الوصف والتحليل ، لان مثل هذا التصنيف الدقيق هو وحده الذى يعطى للقارىء الصورة الحقيقية لتصورات الناس وأفكارهم عن أنفسهم ومجتمعاتهم وثقافاتهم ، وان النتائج التى يصل اليها الباحث عن طريق هذا التصنيف يمكن ان يضعها باحثون آخرون تحت الاختبار للتأكد من دقتها وصحتها اذا اتبعوا نفس الاسلوب فى البنائية الوظيفية التقليدية . والمثال الذى يستشهد به الانثربولوجيون الادراكيون على صحة ما يقولون من أنه قد يذهب اثنان من العلماء الذين يتبعون الاسلوب البنائي الوظيفى التقليدى لمجتمع واحد فيخرجان بنتائج مختلفة هو الدراستان اللتان قام بهما كل من ردفيلد Redfield وأوسكار لويس Oscar Lewis فى احدى قرى المكسيك ، والاختلاف الواضح الذى يظهر فى الكتابين اللذين عالجا هاتين الدراستين . وهو مثال مشهور يعرفه جميع طلاب الانثربولوجيا في المراحل الاولى من دراستهم .

ولا يخلو هذا الكلام من بعض المغالاة والتجنى . فالمعلومات الاثنوجرافية التى يخرج بها العالم الانثربولوجى المدقق لا تتغير من باحث لآخر اذا افترضنا فيهم جميعا نفس الدقة والاهتمام بنفس الموضوعات فى نفس المجتمع ، وانما يأتى الاختلاف بينهم فى العادة في أسلوب التحليل نتيجة لاختلاف الاساس النظرى الذى يعتمد عليه كل منهم .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بان الانثربولوجيا لم تحاول حتى الآن التأكد من صحة النتائج التى وصل اليها الباحثون المختلفون وذلك لصعوبة القيام بهذه العملية نظرا للظروف التى تتم تحتها الدراسة الحقلية وبخاصة حين تتم هذه الدراسة فى احد المجتمعات البعيدة النائية وهو الوضع الاغلب بالنسبة للدراسات الانثربولوجية — يضاف الى ذلك أن الانثربولوجيين — أو معظمهم على الاقل — يرون ان من الاسفاف انفاق الوقت على مثل هذه الامور بينما هناك مجتمعات وثقافات كثيرة لم تدرس حتى الآن ، وانه لابد من الاسراع بدراستها قبل أن تختفى وتزول ، وانه ليس ثمة مايدعو الى اعادة دراسة مجتمع من المجتمعات سبقت دراسته على أيدى أحد العلماء المشهود لهم بالدقة والامانة والصدق ، الا اذا كانت هناك جوانب جديدة لم يسبق دراستها فيه . وهذا موقف تعارضه الانثربولوجيا الادراكية التى يطلق عليها أحيانا اسم Erhnoscience . فهى ترى انه لابد من أن يكون هناك منهج للبحث يهيىء الفرصة لاختبار النتائج التى امكن الحصول عليها من بحوث سابقة . والوسيلة المثلى لذلك — فى رأيهم وعلى ما ذكرنا — هى الحصول من الاخباريين informants على أحكام واضحة تبين كيف يقوم أفراد المجتمع بتصنيف أشياء أوظواهر أو ممارسات معينة بالذات ، والاسس التى يقيمون عليها هذا التصنيف ، ثم المقارنة

بين ما يحدث في ذلك المجتمع او الثقافة بما هو حادث فى مجتمع آخر او ثقافة اخرى . وهذه عملية يمكن تكرارها اى عدد من المرات لاكتشاف ما قد يكون فى النتائج من اخطاء ، فضلا عن أنها تساعد على جمع قدر هائل من المعلومات بدرجة لا نجد لها مثيلا فى كتابات الانثربولوجيين البنائيين التقليديين . (٧)

وعلى اية حال ، فلقد اصبحت هذه الاتجاهات التى تحاول ملء الثغرات التى تعانى منها المدرسة البنائية التقليدية ، تعرف الآن باسم « الانثوجرافيا الجديدة » . وتقوم الانثوجرافيا الجديدة على بعض المبادىء والمواقف والاتجاهات بالاضافة الى استخدامها اساليب خاصة لجمع المعلومات ، وتشترك كل المدارس الجديدة فيما بينها فى التسليم بأن الثقافة تتالف من معرفة ما يجب على الفرد أن يدركه ويؤمن به حتى يستطيع من أن يتصرف كما ينبغى ، وأن يسلك السلوك الذى يتلاءم تماما مع تلك الثقافة التى يعيش فيها . وبقول آخر فان الانثوجرافيا الجديدة تعطى اهمية كبرى للقواعد والمحكات والمبادىء المنظمة للسلوك والتى يأخذها الفرد فى حسابه باعتباره عضوا في ثقافة معينة (راجع تعريف تايلور للثقافة ولاحظ الفرق) ، ومن هنا فان أصحاب الانثوجرافيا الجديدة يميلون الى أن تكون دراستهم للثقافة دراسة « باطنية » أو « داخلية » emic وهي تختلف تماما عن الدراسة الظاهرية أو الخارجية etic لمظاهر السلوك المرئي الذى يمكن للباحث ملاحظته بطريقة مباشرة . فهم ـ اعنى الانثوجرافيين الجدد ـ يدرسون الثقافة من وجهة نظر الاهالى او الناس انفسهم الذين يعيشون هذه الثقافة ويتمثلونها ، وليس من وجهة نظر الباحث الذى مهما يكن من أمر تعمقه فى البحث والدراسة فهو غريب و (خارج) عن الثقافة الوطنية الغريبة التى يدرسها .

ومهما يكن من أمر الانثوجرافيا الجديد وما فيها من جديد ، فالواقع ان هذا الاتجاه يمكن ان نجد بذوره في الكتابات الانثربولوجية الاولى ، وان كان الجدد اضافوا اضافات هامة نتيجة لتقدم المعارف واساليب البحث . وربما كان اهم هذه الاختلافات هو أن الانثوجرافيين الجدد يعتمدون الآن على اللغات الوطنية السائدة فى المجتمعات والثقافات التي يدرسونها بشكل يختلف تماما عما كان يفعله التقليديون . والمعروف انه منذ أيام مالينوفسكى اصبح من المحتم على الانثربولوجيين ان يتعلموا لغات الشعوب التى يدرسونها ، وان يستخدموا هذه اللغات في الدراسة والاتصال بالاهالى والتفاهم معهم بل ، وان امكن ، فى تدوين المعلومات . وبعض الكتابات الانثربولوجية تمتلىء بالالفاظ والكلمات الوطنية التى يصعب ترجمتها الى لغة الباحث نظرا لاحتوائها على مضامين ومفاهيم خاصة بها . ولكن الجديد هنا هو أن الانثوجرافيين الجدد لم يعودوا يكتفون بذلك وانما بدأوا يهتمون اهتماما عميقا بدراسة هذه اللغات وتحليلها لاستخراج مافى مفرداتها من مفاهيم ومضامين ، وما قد تحتويه من قيم وأفكار وتصورات لا يمكن معرفتها او التوصل اليها عن طريق ملاحظة السلوك الظاهرى لافراد المجتمع . ومن هنا نجد ان الانثوجرافيين

---

(٧) انظر فى ذلك كتاب :

Stephen Tyler (ed) : Cognitive Anthropology; Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1969.

الجدد يكادون يعتمدون بالضرورة اعتمادا كليا على ما يقوله لهم الاخباريون من افراد المجتمع وعلى التبريرات التى يقدمها لهم هؤلاء الاخباريون لسلوك أفراد الجماعة ، ومن هنا كان حرصهم الشديد على تدوين ليس فقط المعلومات التى يحصلون عليها بل وايضا الطريقة التى يحصلون بها على هذه المعلومات، أو على الاصح عملية الحصول على المعلومات ، بمعنى انهم يسجلون وبكل دقة الاسئلة او على الاصح المثيرات والمنبهات التى تؤدى الى استجابة الاخباريين وادلائهم بالمعلومات . فالسؤال والاجابة ، او المثير والاستجابة يؤلفان معا الوحدة الاساسية للبناء الادراكى عند الاخباريين . وليس من الضرورى ان يتوجه الباحث بالسؤال الى الشخص الذى يريد أن يحصل منه على المعلومات المطلوبة وانما يساله في الاغلب عن نوع الاسئلة التى يعتقد (أى الاخبارى نفسه) ان من الضرورى اثارتها للحصول على معلومات من نوع معين ثم يبدأ هو نفسه فى الاجابة اليها ولكن مع توجيه غير مباشر من الباحث نفسه . فافراد المجتمع هم الذين يتساءلون وهم الذين يجيبون ، والمسألة كلها تعيد الى الاذهان منهج (التوليد) عند سقراط . وليس من شك في أن توجيه الحديث بهذه الطريقة يحتاج الى قدر كبير من المهارة والاعداد الطويل حتى يمكن الحصول على معلومات متماسكة ومتكاملة ، وحتى يمكن تغطية الموضوع المراد دراسته تغطية دقيقة . فالباحث يسأل الشخص اولا ان يضع سؤالا عن موضوع معين ثم يطلب اليه أن يجيب عليه . ومن هذه الاجابة يبدأ فى اثارة اسئلة اخرى فرعية تتصل بهذا السؤال الاول ، ثم اسئلة اخرى متصلة بالاجابات التي حصل عليها من الاسئلة الفرعية وهكذا. ويتم هنا بطريقة منظمة ومطردة وتعتمد على التصنيف الدقيق . وقد يكون تكرار هذه الاسئلة وبذلك التتابع مع عدد كبير من الاشخاص . وتؤدى هذه الطريقة الى الحصول على معلومات وفيرة يمكن تخزينها بعد ذلك واستخدام الكمبيوتر لتحليلها والرجوع اليها وقت الحاجة .

ورغم الافاق والاعماق الجديدة التي يمكن أن يصل اليها هذا الاسلوب في البحث فان المغالاة فى استخدامه قد يضفى في آخر الامر على البحث نوعا من (الآلية) التي تخلو منها الدراسات الانثربولوجية التقليدية ، مع كل مايؤخذ عليها من عدم الاهتمام بدراسة مدركات الناس وتصوراتهم عن الثقافة . والظاهر أن بعض أنصار الاثنوجرافيا الجديدة انزلقوا الى نفس الطريق الذى سار فيه علم الاجتماع من قبل وهو الاهتمام بأسلوب البحث وطرائق جمع المعلومات حتى ولو كان ذلك على حساب (روح) الثقافة ، بحيث بدات دراساتهم تمتلىء بالارقام والرسومات والقياسات التي كثيرا ما تخلو من المغزى . وهذا على أى حال يعكس الازمة التي تعيشها العلوم الاجتماعية فى أمريكا بالذات نتيجة للمغالاة في تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الاجتماعية والثقافية .

• • •

والواقع أن علم الاجتماع رغم كل ما يحرزه من تقدم يلقى الآن ــ بدوره ــ كثيرا من التشكيك فى أساليبه وطرائقه ومناهجه وجدواه . وليس ادل على ذلك من ان الكتاب السنوى الذى تصدره **دائرة المعارف البريطانية عن العلم والمستقبل** ، وكذلك **الكتاب السنوى لاحداث العالم** لا يشيران الى علم الاجتماع ضمن العلوم السلوكية التي يقصرانها على علم

النفس والانثربولوجيا . وحتى فى عرضها لتقدم العلوم والمعارف الانسانية لا يشيران اطلاقا الى علم الاجتماع وكل اشارتهما الى الرعاية الاجتماعية مثلا . وربما كان ذلك راجعا الى اتساع المجالات والموضوعات التي يكتب فيها علماء الاجتماع الآن بحيث فقد علم الاجتماع كثيرا من التحديد ووضوح المجال ، أو ربما كان ذلك راجعا الى تغلب الاتجاهات السيكولوجية على كثير من الكتابات السوسيولوجية بحيث كاد الفارق فى الموضوعات ومجالات التخصص يختفى بينهما . ويعتقد الكثير من الكتاب أن علم الاجتماع سوف يذوب سريعا فى كل من علمي النفس والانثروبولوجيا .

وربما كانت الانجازات التي قام بها علماء الاجتماع في امريكا بالذات هي خير مقياس يبين لنا اتجاهات هذا العلم فى السنوات الأخيرة . اذ ليس من شك فى أن علم الاجتماع الامريكي هو الذى يقود الآن التفكير السوسيولوجي في العالم بأسره ويفرض على العلماء في بقية انحاء العالم نوع المناهج والاساليب التي تتبع فى الدراسة، بل وايضا نوع المشكلات التي يهتم بها العلماء . ولقد اتجه علم الاجتماع منذ سنين طويلة نحو الاعتماد على الكمبيوتر فى تخزين المعلومات ثم تحليلها ، ودخل المنهج الاحصائى بدرجات متزايدة الى الدراسات الاجتماعية بشكل اثار مخاوف الكثيرين . وهذه مسألة اصبحت راسخة على اى حال كما هي من مستلزمات البحوث السوسيولوجية ليس فى امريكا وحدها بل وفي معظم جهات العالم التي يمكن فيها الاعتماد على الكمبيوتر . ولقد ظهرت مشكلتان اساسيتان فرضتا ـ ولاتزالان تفرضان ـ نفسيهما على المشتغلين بعلم الاجتماع، وهما مشكلتان نابعتان من واقع المجتمع الامريكى ثم امتد الاهتمام بهما الى كثير من انحاء العالم الغربي ، بل انهما يجدان صدى لهما فى بعض الجامعات العربية وبخاصة الجامعات المصرية مع شيء من التحوير والتعديل بما يتفق مع طبيعة المجتمع العربي .

فاما الموضوع الاول فهو الصراع العنصرى فى المجتمع الامريكي . وقد ظهرت كتابات عديدة وكثيرة تعالج هذه المشكلة ، وربما كان **تقرير مونيهان** Moynihan Report الذى صدر عام ١٩٦٥ من اهم ما كتب عن هذه المشكلة فى امريكا، ومن اكثر الكتابات في هذا الموضوع صراحة وجراة . وقد حاول التقرير أن يبين ان المعونات الاقتصادية التي تقدمها الحكومة للزنوج لن يمكن أن تحقق العدالة والمساواة بين الزنوج والبيض نظرا لكبر حجم العائلة الزنجية ، وزيادة الانجاب غير الشرعي، وغياب الآباء وتولى النساء رئاسة العائلة . كل هذا بالاضافة الى عصور العبودية الطويلة جعل وضع الزنوج على درجة بالغة من السوء بحيث يكاد الامل فى التقدم يكون امرا ميئوسا منه . ولقد كان من الطبيعي ان يقابل هذا التقرير بكثير من الامتعاض والهجوم والنقد ، حتى جاء اخيرا احد علماء الاجتماع والتاريخ بجامعة مدينة نيويورك City University of New York وهو هربرت جوتمان Herbert Gutman فأصدر فى العام الماضى كتابا عن « العائلة الزنجية » بين العبودية والتحرر فى الفترة من ١٧٥٠ـ١٩٢٥ » ويبين فيه أنه على الرغم من كل ما صادفه الزنوج من اضطهاد فقد كانت العائلة الزنجية تبدى كثيرا من القوة والتماسك والتضامن بشكل يدعو الى الدهشة والاعجاب، وانه على الرغم من بعض التحرر الجنسي قبل الزواج فان الولاء والامانة الجنسية بعد الزواج يتوفران بدرجة تخالف كل الشائع عن الزنوج،

وان كان بيع الزوجات ايام العبودية يعتبر من العلامات التي كانت تؤدى الى انهدام الاسرة في حالات كثيرة . وهذا امر طبيعي . وعلى الرغم من ان جوتمان توقف بدراسته حتى عام ١٩٢٥ فان الكثيرين من علماء الاجتماع يرون ان العائلة الزنجية حتم عام ١٩٧٦ لا تزال تكشف عن نفس الملامح من القوة والتماسك بعكس حال العائلة الامريكية البيضاء ، وان كان بعض العلماء بغير شك لايرتاحون لهذه النتيجة ، ولايكادون يقبلون أن تدمغ عائلات البيض بالتفسخ والانحلال في الوقت الذى يقال فيه ان عائلات الزنج اكثر تماسكا وتضامنا . ولا تزال الدراسات تجرى حتى الآن حول هذا الموضوع وهي دراسات اساسها الصراع العنصرى القائم فى أمريكا ، والرغبة بالتالى فى التعرف على خصائص كل من الجماعتين .

وواضح أن معظم الاهتمام متجه الى دراسة الاسرة وتركيبها وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية ، وهو الموضوع الثاني الذى يشغل بال علماء الاجتماع الامريكيين وبخاصة بعد حركة التحرر النسائى الاخيرة . وهو موضوع سبق أن عالجناه فى العدد الخاص بالمرأة من هذه المجلة . الا ان مشكلة العلاقات الجنسية خارج الزواج وبكل ماتتخذه هذه العلاقات من اشكال ، وما يترتب عليها من نتائج مثل انجاب أطفال غير شرعيين ، وحق المرأة في الاجهاض ، والمكانة الاجتماعية التي سوف يشغلها الطفل غير الشرعي ، كلها تشغل اذهان السوسيولوجيين الامريكيين الآن . والكتابات التي ظهرت حتى الآن عن الجنس كثيرة ومتنوعة وعلى درجات متفاوتة أشد التفاوت في العمق والاتفاق أو الضحالة والتفاهة . وكثير منها يعتمد على توجيه مجموعة محدودة من الاسئلة التي تدور حول موضوع معين الى فئة عمرية معينة من اعضاء المجتمع . ولكن أغلب البحوث تجرى بين طلبة وطالبات الجامعات .

وكما ظهر بالنسبة لمشكلة العلاقات العنصرية **تقرير مونيهان** الذى أشرنا اليه ظهر بالنسبة للمشكلة الجنسية **تقرير هايت** The Hite Report الذى يعالج مشكلات الجنس عند المرأة من وجهة نظر الرجل . وقد قامت باعداد الدراسة أو التقرير احدى المشتغلات بعلم الاجتماع وحركة التحرر النسائى فى أمريكا وتدعى شيرى هايت ، وبدلا من أن تلجأ هايت الى الاتصال بالنساء واستجوابهن والحصول منهن على المعلومات التى ترغب فيها ، كما هو الحال فى معظم الدراسات الأخرى ، رأت ان تتعرف على هذه المشكلات عن طريق دراسة اتجاهات الجنس عند الرجل وموقفه من المرأة ومن العلاقات الجنسية ، وافكار الرجال عن الدور الذى يلعبه الجنس فى حياتهم وحياة النساء على السواء ، والى أى حد يعتبر الرجل المرأة « موضوعا جنسيا » ومعنى ذلك بالنسبة اليه . والطريف في الأمر هنا أن شيرى هايت لم تكن تهدف فى الاصل حين بدأت الدراسة أن تكتب كتابا أو تقريرا يصبح من اكثر الكتب رواجا فى أمريكا ، وانما بدأت الفكرة عندها فى أول الأمر تلبية لرغبتها في التعرف على مدى معرفة الامريكيين بشئون الجنس ، وادراكهم لمشكلاته وتقييمهم للعلاقة الجنسية وللدور الذى يلعبه الجنس في حياتهم ، وهل هم مدركون بالفعل لأهمية الجنس ، ثم مدى ما تعرفه هى نفسها باعتبارها امرأة وباحثة فى علم الاجتماع عن موقف الامريكيين من هذه المشكلة ، ومدى مطابقة معرفتها التى حصلتها من القراءة حول الموضوع بما هو قائم بالفعل فى المجتمع . وقد وضعت شيرى هايت قائمة

اسئلة تتميز بالطرافة والتجديد مثل : هل تحب أن تغير جنسك بأى شكل من الاشكال ؟ هل احسست ابدا بما يمكن تسميته بالشبق العاطفى؟ هل تشعر أن الجنس مسألةسياسية بشكل او بآخر ؟ وما الى ذلك . وقد ارسلت هذه القائمة الى ٤٠٠٠ر٤ مستجوب عن طريق الجمعيات والكنائس والمراكز المعروفة باسم Pop-Psychology والتى تنتشر فى امريكا انتشارا واسعا . وحين وجدت أن المعلومات التي توفرت لديها كانت من الكثرة والتنوع والطرافة بشكل يصلح لان تكون مادة علمية لكتاب عميق وطريف عكفت على تاليف هذا (التقرير) الذى يجد له صدى في المجتمع الامريكى فاق الصدى الذى وجده تقرير كنزى الشهير . وتذكر هايت أنها سوف تؤلف قائمة اخرى أطول من الاسئلة ترسلها الى ١٠٠٠ر٠٠٠ مستجوب آخر للحصول على مزيد من المعلومات .

●●●

وواضح من هذا العرض السريع لما حدث في مجال علوم الانسان والمجتمع خلال السنوات القليلة الماضية مدى التنوع والتمرد والثورة والرغبة في التجديد لاكتشاف آفاق جديدة غير تلك التى درجت هذه العلوم على ارتيادها. ومعظم هذه التجديدات يرجع الى نفس التغيرات الاجتماعية التي يمر بها المجتمع الغربي وبخاصة الامريكي ، وعدم الاستقرار فى الحياة الفكرية . وعلى الرغم من أن بعض الميادين والموضوعات جديد تماما الا ان الكثير مما يكتب الآن ليس الا ترديدا لافكار قديمة ولكن فى ثوب جديد .

★ ★ ★